



OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 2025-8-10

تاريخ القبول: 2025-9-30

النظر النقدي في علوم القرآن عند الزركشي من خلال البرهان: أنواعه، ووسائله، ومجالاته

هشام مومني⁽¹⁾

hicham.moumeni@usmba.ac.ma

رضوان صفار⁽²⁾

safarredouane8@gmail.com

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى استجلاء معالم النظر النقدي في علوم القرآن عند الإمام بدر الدين الزركشي من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن، وذلك بالكشف عن أنواع النقد التي مارسها، ووسائله، ومجالاته المعرفية والمنهجية. وقد انطلق البحث من إشكال رئيس يتعلق بتحديد مفهوم النقد في علوم القرآن، ورصد تجلياته في البرهان، مع بيان الأبعاد العلمية التي حكمت ممارسة الزركشي النقدية. واعتمدت الدراسة المنهج الاستقرائي في تتبع النماذج النقدية الموزعة في ثنايا الكتاب، والمنهج التحليلي في مناقشتها وتأصيلها وتقويمها. وقد خلص البحث إلى أن الزركشي لم يكن مجرد ناقل لمباحث علوم القرآن، بل مارس نقدًا علميًا واسعًا شمل الأشخاص والمؤلفات والمدارس والاتجاهات العقيدية واللغوية والتفسيرية، مستعينًا بوسائل متعددة، من أبرزها التمثيل المضاد، والاحتجاج بأهل الاختصاص، والاستدلال بالقواعد اللغوية والبيانية. كما بيّنت الدراسة أن النقد عند الزركشي اتسم بالتوازن؛ إذ جمع بين إبراز مواطن القوة والتنبيه إلى مكامن الخلل، بما يعكس وعيًا منهجيًا أسهم في تطوير مباحث علوم القرآن وتقويمها. وتبرز أهمية هذا البحث في كونه محاولة أولى لرصد البعد النقدي في البرهان والكشف عن أثره في بناء علوم القرآن وتطويرها..

الكلمات المفتاحية

النقد اللغوي، النقد العقدي، علوم القرآن، تفسير القرآن الكريم، تأصيل علوم القرآن.

(1) أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - سايس، فاس، المغرب.

(2) أستاذ التعليم الابتدائي بكلية الدراسات البيضاء - سطات، المغرب.

للاقتباس: مومني، هشام، و صفار، رضوان، النظر النقدي في علوم القرآن عند الزركشي من خلال البرهان: أنواعه، ووسائله، ومجالاته، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج 10، ع 2، 2026، 43-10.

© نُشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص بتنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان ما إذا أُجريت عليه أي تعديلات، ولا يجوز استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS

Received : 2025-8-10

Accepted : 2025-9-30



Critical Examination of Qur'anic Sciences in al-Zarkashi's *al-Burhān*: Types, Methods, and Domains

Hisham Momeni⁽³⁾hicham.moumeni@usmba.ac.maRidhwan Saffar⁽⁴⁾safarredouane8@gmail.com

Abstract:

This study explores the critical dimension of Qur'anic sciences as articulated by Imam Badr al-Din al-Zarkashi in *Al-Burhān fī 'Ulūm al-Qur'ān*, tracing how he defined, practiced, and applied criticism across the disciplines. It identifies the types of critique he employed, the methodological tools he relied upon, and the epistemological domains he engaged, situating these within the broader question of what "criticism" means in the context of Qur'anic studies. Through an inductive survey of dispersed critical models and an analytical evaluation of their implications, the research shows that al-Zarkashi was not merely cataloging topics but actively critiquing scholars, schools, texts, and exegetical trends. His practice combined counter-examples, appeals to authoritative voices, and arguments grounded in linguistic and rhetorical principles, all balanced by a methodological awareness that highlighted strengths as well as weaknesses. Ultimately, the study demonstrates that al-Zarkashi's critical engagement significantly shaped the development of Qur'anic sciences, making *Al-Burhān* a pioneering work in embedding systematic critique within the discipline.

Keywords:

Linguistic Criticism, Doctrinal Criticism, Sciences of the Qur'an, Exegesis of the Holy Qur'an, Establishing the Foundations of the Sciences of the Qur'an.

(3) Professor and Researcher at the Faculty of Letters and Human Sciences – Saïs, Fez, Morocco.

(4) Primary Education Teacher at the Casablanca–Settat Academy, Morocco.

Cite this article as: Momeni, Hisham, and Saffar, Ridhwan, "Critical Examination of Qur'anic Sciences in al-Zarkashi's *al-Burhān*: Types, Methods, and Domains," *Journal of Namaa*, Nama Center, Egypt, V 10, issue 2, 2026,10-43.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read, and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

مقدمة:

لقد شكّل البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي مجالاً خصباً لجهوده العلمية، فكان من التصانيف الفريدة، حيث برع فيه الزركشي في فنون وفروع عديدة، ولعل من أهم ما ميّز البرهان بصماتُه النقدية التي طالت مجالات معرفية مختلفة.

بناء على ما سبق، وإسهاماً متّاً في تجلية بعض الجوانب المتعلقة بالنقد المبتوث في ثنايا البرهان في علوم القرآن، أثرنا تناول بحث وسمنا موضوعه ب: «النظر النقدي في علوم القرآن عند الزركشي من خلال البرهان، أنواعه، وسائله، ومجالاته» سائلين الله تعالى أن يفتح بصيرتنا، ويسدّد تفكيرنا، ويقوّي عزيمتنا، ويحقق مرادنا، ويُغني الخزانة الإسلامية بما سوّده مدادنا.

1. إشكال البحث

يضعنا موضوع هذا البحث أمام إشكال يمكن صياغته على النحو الآتي:

- ما المقصود بعلوم القرآن؟
 - ما المقصود بالنقد في علوم القرآن؟
 - ما أنواع النقد الممارس في البرهان في علوم القرآن للزركشي؟ وما وسائله ومجالاته؟
- وعلى ذلك فإن هذه الدراسة تهدف إلى استقراء أنواع النقد في علوم القرآن، ووسائله، ومجالاته عند الزركشي من خلال برهانه وتحليلها ودراستها بعد الوقوف على ما يتأسس عليه النظر في ذلك من بيان لمفهوم النقد وعلوم القرآن.

ولتحقيق ذلك اعتمدنا منهجين اثنين هما:

المنهج الاستقرائي: ووظّفناه في استخراج أنواع نُقود الزركشي المبتوثة في ثنايا البرهان في علوم القرآن، وكذا وسائله ومجالاته، إلا أننا اعتمدنا الاستقراء الناقص مُستفريغين جهدنا في إحصاء أهمّ الأمثلة والنماذج، منها ما ذكرناه بنفس تحليلي، ومنها ما اكتفينا بإدراجه في جداول للرجوع إليه في محلّه عند الحاجة.

المنهج التحليلي: ووظّفناه في دراسة النصوص المتضمنة لتلك النقود شرحاً ومناقشة وتعليقاً بعد تأصيل أصولها وتفصيل فروعها.

وقد اقتضى النظر في ذلك كله وضع خطة من مبحثين، خصّصنا الأول للدراسة التعريفية، في ثلاثة مطالب، تناولنا فيها مفهوم النقد، وعلوم القرآن، والتعريف بالبرهان في علوم القرآن.

وخصصنا المبحث الثاني لبيان معالم النقد في البرهان، من خلال ثلاثة مطالب موزعة على أنواع النقد، ووسائله، ومجالاته.

وختمنا الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها.

2. أهمية الموضوع

إن موضوع النقد في علوم القرآن يكتسي أهمية كبرى، تتجلى فيما يلي:

- البحث عبارة عن دراسة قرآنية مرتبطة بكتاب الله تعالى، الذي يستحق الخدمة من كل جانب، فقيمة هذا البحث مُستمدّة من قيمة مجال قضاياها ومسائله القرآنية، التي يتناولها بيانا، وتحليلا، ونقدا.
- في البحث مساحة كبيرة تُعنى بتمحيص مباحث علوم القرآن معرفيا ومنهجيا، وانتقادها من خلال الكشف عن مكامن الخلل في مصنّفات علوم القرآن قصد تقويمها، ومكامن السداد قصد استثمارها، وتطويرها، وذلك سبيل من سُبُل التّقدّ البناء المؤدّي إلى تقوية العلوم الخادمة للقرآن الكريم.
- رفع توهم انحصار النقد في علم الحديث، دون غيره من العلوم المنتمّة إلى مجال الدراسات الإسلامية.
- لا تزال علوم القرآن في حاجة ماسّة إلى مزيد من البحث، ولا شك أنّ مثل هذه البحوث تكشف عن إشكالات يمكن الاشتغال بها استقلالا في المؤتمرات والندوات وغيرها من المحافل العلمية.

3. أهداف البحث

- بيان المقصود بالنقد في علوم القرآن.
- تصنيف المادة النقدية، وتحديد مجالاتها المعرفية.
- تحفيز الباحثين على البحث في أثر نقد البرهان في بناء علوم القرآن وتطويرها.

4. الدراسات السابقة

لم يحظَ موضوع النظر النقدي في علوم القرآن عند الزركشي من خلال البرهان، أنواعه، ووسائله،

ومجالاته- فيما وقفنا عليه من جهود علمية- بعناية مستقلة تستجلي أنواع النقد في البرهان، ووسائله، ومجالاته، فقد تناولت الدراسات السابقة المتعلقة بالبرهان في علوم القرآن: منهجه في التأليف، والفرق بينه وبين السيوطي من حيث تناول مباحث علوم القرآن، كما تناولت التفكير البلاغي للزركشي من خلال البرهان، وبعض الأساليب الواردة فيه كأسلوب الحذف، كما أنّ هناك من درس الجانب التفسيري في البرهان مُستخرجا منه الوجوه التفسيرية المختلفة، إلى غير ذلك من الدراسات التي لم تقف عند أنواع النقد، ووسائله، ومجالاته المبتوثة في البرهان، ومن ثمّ، فإنّ هذا البحث يسدّ فراغا علميا، ويُعدُّ محاولة أولى لاستخراج النقد من البرهان، والوقوف عند أنواعه، ووسائله، ومجالاته، ولا شكّ أن هذا يفتح المجال للدارسين للبحث في أثر هذا النقد في بناء علوم القرآن وتطويرها.

المبحث الأول: دراسة تعريفية للنقد، وعلوم القرآن، والبرهان

إنّ للتعريف في البحوث العلمية دورا أساسيا في تحديد الإطار المرجعي للدراسة البحثية، وتوجيه القارئ إلى فهم مقصود الباحث، وبناء عليه، فإنّ النقد وعلوم القرآن من المفاهيم التي تحتاج إلى نظر علمي يجلّي حقائقهما، وسياقتهما التاريخيتين، كما أنّ كتاب البرهان في علوم القرآن من الكتب العلمية الفريدة التي تحتاج إلى تعريف بما حوته من أنظار علمية، وجواهر منهجية تميّزها عمّا ألف في غيرها من قبيل الباب نفسه.

المطلب الأول: مفهوم النقد

النقد لغة:

تطلق كلمة «النقد» في اللغة للدلالة على معان كثيرة، فهي تستعمل للدلالة على الإبراز والإظهار، قال ابن فارس: «النون والقاف والذال أصل صحيح يدل على إبراز الشيء وبروزه، ومن ذلك: النقد في الحافر، وهو تقشّره...، ومنه نقد الدرهم، وذلك أن يكشف عن حاله في جودته أو غير ذلك، ودرهم نَقْدٌ: وازن جيد، كأنه قد كُشِفَ عن حاله فعُلِمَ»⁽⁵⁾، وقد ذكر ابن منظور عدة دلالات للنقد، حيث جاء في لسان العرب أنها كلمة تُستعمل في الدلالة على تفحص الشيء والنظر إليه، وذلك بقوله: «نقد الرجل الشيء بنظره ينقده نقدا ونقد إليه: اختلس النظر نحوه، وما زال فلان ينقد الشيء بعينه، وهو

(5) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، معجم مقاييس اللغة، سوريا، دار الفكر، ط1، 1399هـ/ 1979م، ج5، ص467.

مخالسة النظر لئلا يفطن إليه»⁽⁶⁾، كما ذكر أيضا أن كلمة النقد تستخدم للدلالة على تقشير الشيء والكشف عنه وإظهاره، حيث قال: «النقد تقشر في الحافر وتُأكل في الأسنان»⁽⁷⁾، إضافة إلى هذا، نجد أنه يذكر دلالة أخرى مُستشهدا عليها بما أُثر عن سيبويه، تتمثل في أن النقد يُطلق على تمييز الجيد من الرديء، بقوله: «والنقد والتنقاد: تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها، أنشد سيبويه:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة ** نفي الدنانير تنقاد الصيارف»⁽⁸⁾.

كما نجد العرب يطلقون النقد على فن تمييز جيد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده، وتبيان ما فيه من عيب أو حُسن، حيث ورد في المعجم الوسيط: «ونقدَ الدراهم والدنانير وغيرهما نقدا وتنقادا: ميّز جيدا من رديئها. ويُقال: نقد النثر، ونقد الشعر: أظهر ما فهمنا من عيب أو حُسن. وفلان ينقد الناس: يعيبيهم ويغتاهم»⁽⁹⁾.

لقد تعددت الدلالات اللغوية لكلمة «النقد»، إلا أن المعاجم العربية اجتمعت كلمتها على أن هذا اللفظ يدور على إخراج الشيء وتمحيصه والكشف عنه لتمييز جوده من رديئه، وإظهار محاسنه وعيوبه.

النقد اصطلاحًا:

لقد شاع مصطلح النقد في الحقل الأدبي لكونهما وجهين لعملة واحدة بسبب تلازمهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر، فالنقد ملازم للأدب من حيث النشأة والتطور عبر الزمن، الشيء الذي جعل جُلّ التعاريف المرتبطة بمصطلح النقد تنسبه إلى الأدب عموما، والشعر على وجه الخصوص، فالعمل النقدي انطلق من عالم الأشعار من خلال التعبير عن مواقف كلية في النظر إليها، بدءا بالتذوق، ومرورا بمراحل متدرجة للوصول إلى الحكم عليها نجاحا وإخفاقا، يقول عباس إحسان في هذا السياق: «النقد في حقيقته تعبير عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامة، أو إلى الشعر خاصة، يبدأ بالتذوق، أي القدرة على التمييز، ويعبّر منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم، خطوات لا تغني إحداها عن الأخرى، وهي متدرجة على هذا النسق، كي يتخذ الموقف نهجا واضحا، مؤصلا على قواعد جزئية أو عامة مؤيدا بقوة الملكة بعد قوة التمييز»⁽¹⁰⁾.

(6) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، لبنان، دار صادر، ط 1، 1412 هـ/1992 م، ج 3، ص 425.

(7) المرجع السابق، ج 3، ص 426.

(8) المرجع السابق، ج 3، ص 425.

(9) إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 2004، م 4، باب النون، ص 944.

(10) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت، دار الثقافة، ط 4، 1983 م، ص 5.

إنَّ الشيعون المشار إليه في علاقة النقد بالأدب لا يعني عدم اشتغال العلوم الأخرى بالنقد حسب خصوصيات كل علم من هذه العلوم، لذلك نجد المشتغلين بالبحث العلمي يعرفونه، مُخْرِجين إياه من دائرة الأدب، لينفتح على مختلف الحقول والعلوم، فتصبح دائرة اشتغاله تتسم بالسَّعة والمرونة، يقول فريد الأنصاري رحمه الله في هذا السياق مُعرِّفاً النقد بقوله: «عملية رصد لمواطن الخطأ والصواب في موضوع معين، بعد دراسته وفحصه، يستند فيه الباحث إلى الأصول والثوابت العلمية المقررة في مجال العلم الذي ينتمي إليه هذا الموضوع، وذلك من أجل تقويم وتصحيح بعض المفاهيم المتعلقة بذلك الموضوع»⁽¹¹⁾، إذن فدائرة النقد أوسع مما يُتصوَّر، بحيث يأخذ كل علم نصيبه من الصناعة النقدية، مع الأخذ بعين الاعتبار حيثيات الفن الذي يُمارَس فيه، فنقد الأدباء غير نقد المحدثين، ونقد المؤرخين مختلف عن نقد الأصوليين، فلكل علم قواعده ومناهجه، غير أن هناك قدرًا مشتركًا بين كل العلوم والفنون في هذا الباب، ويتعلق الأمر بالنظر في الإنتاج العلمي بعين ناقدة من أجل الكشف عن النقائص والعيوب على وجه الخصوص، وكذا مواطن القوة والصواب، وبناء على ما سبق، فقد نالت العلوم الشرعية حظها من الصناعة النقدية، حيث اجتهد العلماء في صياغة تعريفات للنقد تتناسب وطبيعة العلم المدروس.

المطلب الثاني: مفهوم علوم القرآن

إنَّ الحديث عن حدِّ علوم القرآن يقتضي منا استحضار المعنى الناتج عن المركب الإضافي، كما يقتضي منّا أيضًا استحضار علوم القرآن باعتباره فنًّا مدوّنًا ضمن لائحة العلوم الشرعية، أي بالمعنى الاصطلاحي للمتأخرين، وذلك من أجل تناول المصطلح تناوُلًا بأوسع منظار، أما علوم القرآن بمعناه الإضافي، فهو يشير إلى كل علم يبحث في القرآن الكريم من أي جهة من جهاته ونواحيه المتعددة، وكذا كل علم خرج من رَجْمِهِ، يقول الدكتور محمد أبو شهبّة في سياق حديثه عن المعنى المنبثق عن المركب الإضافي للفظتي (علوم) و(القرآن): «فهي تشير إلى كل المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن»⁽¹²⁾، فهو بهذه السعة والشمول تندرج تحته عدة علوم، باعتبار مسانديتها وخدمتها للقرآن الكريم، أو باعتبار أصلها، لا باعتبار كون القرآن محورًا وموضوعًا، لذلك نجد الإمام السيوطي قد عقد بابًا في كتابه الإتقان، تحدث فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن، فوسَّع من خلالها دائرة علوم القرآن بمعناه الإضافي، حيث ذكر الطب والهندسة والفلاحة والطبخ والهندسة وغير ذلك من العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم.

(11) فريد الأنصاري، أبحاث في العلوم الشرعية، المغرب، دار الفرقان، ط1، 1417هـ/ 1997م، ص98.

(12) أبو شهبّة، محمد بن محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، الرياض، السعودية، دار اللواء، ط3، 1408هـ/ 1987م، ص. 24.

أما علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي المتأخر، فقد تباينت العبارات، واختلفت الإشارات في الدلالة على المقصود، بين مختصر ومطول، وتجدر الإشارة هنا إلى أن كل تعاريف علوم القرآن من الناحية اللقبيية – أي كونه علماً على المباحث الكلية الجامعة المتعلقة بالقرآن الكريم – هي مما جادت به قريحة المتأخرين، إذ لم نثر على تعريف لأحد من المتقدمين لعلوم القرآن بوصفه اللقبى، قال الزرقاني – رحمه الله – مُعرِّفاً علوم القرآن: «مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابه، وقراءته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك»⁽¹³⁾، وعرفه أبو شهبه تعريفاً قريباً من تعريف الزرقاني، كما عرفه خليل مناع القطان بتعريف لا يكاد يخرج عن الإطار العام للتعريفين السابقين، حيث قال: «المراد بعلوم القرآن: العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن»⁽¹⁴⁾.

يُلاحظ أن التعاريف السالفة لم توفق في حصر علوم القرآن حصراً دقيقاً في ذهن القارئ، بحيث نلاحظ في نهاية كل تعريف عبارة (ونحو ذلك) أو ما شابهها، الشيء الذي يُشعر بعدم حصر المباحث تحت مسميات تستوعبها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن العبارات الواردة في التعاريف تحتمل كون علوم القرآن تتناول المباحث بشكل تفصيلي، في حين أن الدارس لعلوم القرآن يعي تمام الوعي بأن مهمتها محصورة في التأصيل، ودراسة كل مبحث على وجه كلي.

وأمام هذه التعريفات المفتقرة لتمام الضبط العلمي المنهجي، ظهرت محاولات حديثة لمقاربة مفهوم علوم القرآن مقارنة تتحرى شيئاً من الدقة العلمية، وتتجاوز ما لوحظ من نقص أنفاً، منها قول الدكتور هشام مومني⁽¹⁵⁾: «إن علوم القرآن هي: ما يخدم القرآن من حيث تاريخه وقراءته وتفسيره على وجه كلي»⁽¹⁶⁾.

والناظر في علوم القرآن، المحصي لها، يجدها لا تخرج عن التقسيم الثلاثي الذي خلص إليه هذا التعريف، والله أعلم.

بعد التجوال في رياض مصطلحي النقد وعلوم القرآن، تمكنا من تشكيل صورة ذهنية عن المقصود

(13) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي للنشر والتوزيع، ط 5، (د.ن)، ج 1، ص 20.

(14) القطان، مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط 1، 1432هـ/2011م، ص 15.

(15) أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة سيدي محمد بن عبد الله – كلية الآداب والعلوم الإنسانية - سايس- فاس.

(16) مجموعة مؤلفين، علوم القرآن إشكالية المفهوم والمنهج والوظيفة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ط 1، 2019م، ص 102.

بالنقد في علوم القرآن، والتي يمكن أن تحمل دلالات عدة باعتبارها مركبا، إلا أن المقصود في هذا البحث هو: «الكشف عن المعايير والمحاسن المتعلقة بمضامين مؤلفات علوم القرآن الخادمة للقرآن الكريم من حيث تاريخه وقراءته وتفسيره على وجه كافي، وذلك تثميناً لمواطن القوة، وتقويماً لمواضع الضعف علمياً ومنهجياً».

المطلب الثاني: التعريف بالبرهان للزركشي

إنّ من تمام الفائدة، واكتمال الرؤية، التعريفُ بصاحب البرهان، إذ إنّ كثيراً ممّا قيل عن المؤلفات لا يُفهم إلا من خلال استحضار مؤلّفها، وعليه، نقول سائلين الله السداد: بدر الدين الزركشي: هو محمد بن عبد الله بن بهادر، الزركشي، أبو عبد الله، ويُلقب ببدر الدين، وهو تركي الأصل، مصري المولد والوفاء، شافعي المذهب، ولد رحمه الله سنة 745هـ، تتلمذ في مصر على يد عدد من الشيوخ، ثم سافر إلى حلب وبعدها إلى دمشق، حيث أخذ الفقه والحديث عن الحافظ ابن كثير (توفي 774هـ)⁽¹⁷⁾، والمتأمل في عمر هذا الإمام، وما قدمه من نتاج علمي، يمتلكه العجب، وتروعه الدهشة، فالظاهر أن عُمره غير متناسب مع مؤلفاته، إذ عاش تسعة وأربعين سنة، واستطاع رغم ذلك أن يصنف كتباً منها الطويل والمتوسط والوجيز، وقد كان رحمه الله موسوعياً، حيث أحاط علماً وإتقاناً بمعظم ضروب العلوم الإسلامية، إلا أنه غلب عليه الفقه والأصول ضابطاً واشتغالاً، يقول الدكتور حازم سعيد حيدر في سياق حديثه عن الجانب العلمي في شخصية الإمام الزركشي: «وقد غلب عليه الاشتغال بالفقه، ويليهِ أصوله، ثم علوم الحديث، ثم اللغة وآدابها، ثم علوم القرآن، ثم العقيدة، ثم التاريخ، ثم فنون أخرى، كالمنطق وغيره»⁽¹⁸⁾، وترتيب هذه المجالات في اهتمام الإمام الزركشي، إنما هو بحسب معيار الاشتغال والتأليف، لا التمكّن والبراعة، فقد قرأنا كتابه البرهان، فاندھشنا من ملكاته المصقولة ومواهبه الدفينة في كل الفنون التي تكلم فيها، فلما كنّا نقف على مناقشاته اللغوية واستدراكاته على كبار اللغويين، حسبناه لغوياً بالدرجة الأولى، وعندما كنّا نتأمل في كلامه على بعض الأحاديث صحة وضعفاً، وعن نقد الرجال، تبدّى لنا أن الزركشي جبل في الحديث، ولما كنا نصادف ردوده على المعتزلة بخصوص معتقداتهم، طبع في مخيلتنا أنه في طليعة علماء العقيدة، فهو - ﷺ - متمكّن في كل العلوم والفنون التي طرقها، بل كان يناقش المتخصصين فيها. أما مؤلفاته، فقد تنوعت بتنوع العلوم، وفيما

(17) الزركشي، خير الدين، الأعلام، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ص60 - 61.

(18) حيدر، حازم سعيد، علوم القرآن بين البرهان والإتقان «دراسة موازنة»، المدينة المنورة، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، ط2، 1427هـ/2006م، ص35.

يلي بعض مؤلفاته، مع اقتصارنا على مجرد التمثيل للفنون التي صَنَّفَ فيها:

- البرهان في علوم القرآن (علوم القرآن).
- البحر المحيط (أصول الفقه).
- الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة (علوم الحديث).
- خبايا الزوايا (الفقه).
- التذكرة النحوية (علوم اللغة).
- معنى لا إله إلا الله (العقيدة).
- عقود الجمان ذيل وفيات الأعيان (التاريخ).

وبعد حياة غلب عليها العلم والمعرفة، توفي الزركشي رحمه الله في القاهرة سنة 794هـ⁽¹⁹⁾، تاركًا نتاجًا فكريًا علميًا وفيرًا، ومجالًا خصبًا لطلبة العلم والعلماء ينهلون مما جاء فيه من العلوم والمعارف. أمَّا كتاب البرهان في علوم القرآن، فُيَعَدُّ أول كتاب جُمِعَ فيه أكبر قدر من أنواع علوم القرآن، بحيث ذكر فيه الزركشي -رحمه الله- سبعة وأربعين فنًّا من الفنون المتصلة بالقرآن الكريم، قاصداً الاستقصاء والجمع والاستيعاب، حيث قال مشيرًا إلى هذا المعنى: «فاستخرتُ الله تعالى - وله الحمد - في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلم الناس في فنونه، وخاضوا في نكته وعيونه...»⁽²⁰⁾، ويُعَدُّ هذا المؤلف باكورة مرحلة الجمع والتأصيل⁽²¹⁾ في علوم القرآن، أما الجمع، فعدد أنواع العلوم المتضمنة فيه دليل على استحقاقه لهذه الصفة، وأما التأصيل، فالزركشي -رحمه الله- لم يُفصح عن منهج معيَّن في التصنيف، ولم يعلل ترتيبه لأنواع العلوم التي أوردها، إلا أننا لمسنا ونحن نتجول في رياض البرهان أن الحس المنهجي حاضر من خلال مراعاة المناسبات بين بعض الأنواع، لذلك نجد فرقا شاسعا بين هذا المؤلف والمؤلفات التي سبقتة، فهذه الأخيرة اقتصرت على مجرد الجمع، بينما كتاب البرهان تميز عنها ببعض الترتيبات المنطقية، سواء قصدها الزركشي أم لم يقصدها، هذا من حيث انتماءؤه إلى مرحلة

(19) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، بيروت، عالم الكتب - ط 1، 1407هـ، ج 3، ص 167 - 168.

(20) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبي الفضل الديمياطي، القاهرة، دار الحديث، (د. ط)، 1440هـ/ 2018م، ص 19.

(21) تجدر الإشارة هنا إلى أن التصنيف في علوم القرآن بالمعنى الخاص، أي باعتباره فنًّا مدوَّنًا بالمعنى الاصطلاحي المتأخر، مرَّ بثلاث مراحل: مرحلة البناء والتأسيس (من ابن الجوزي إلى الزركشي) - مرحلة الجمع والتأصيل (من الزركشي إلى ابن عقيلة المكي) - مرحلة التهذيب والترتيب والتذييل (ما بعد ابن عقيلة المكي): يُنظر مقال للدكتور هشام مومني بعنوان: «علوم القرآن من إشكال التصنيف إلى وضع المفهوم» ص 65 - 70 - 83، ضمن كتاب: علوم القرآن إشكالية المفهوم والمنهج والوظيفة، مجموعة مؤلفين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط 1، 2019م.

الجمع والتأصيل، أما فيما يتعلق بقيمته العلمية، فاعتماد السيوطي عليه في الإتيان، وإشادته به، وتأسى طريقته، ونقل الكثير من فصوله دليل على مكانته العلمية التي يحتلها بين الموسوعات القرآنية، ناهيك عن الشهادات التي تنضح بالثناء عليه، نذكر منها قول ابن حجر في سياق حديثه عن مؤلفات الزركشي: «ومن تصانيفه «البرهان في علوم القرآن» من أعجب الكتب وأبدعها، مجلدة ذكر فيها نيفا وأربعين علمًا من علوم القرآن»⁽²²⁾.

إن الدارس لكتاب البرهان يلمس بجلاء مميزات تفرد بها الزركشي وهو يعالج فقرات مؤلفه، منها بعض اللفظات التفسيرية التي يجد القارئ نفسه من خلالها ماثلا بين صفحات تحاكي إبداعات المفسر المحنك في التحقيق، الشيء الذي يجعله إزاء لمسات تفسيرية بديعة قلما يعثر عليها في كتب التفسير، ولم يكتفِ الزركشي بومضاته التفسيرية الفريدة، بل تجاوز ذلك إلى ردّ الوجوه الضعيفة منها، وردّه على الفرق المجانبة للصواب عقديا فيها، ناهيك عن تحقيقاته العلمية التي أضفت تميزا خاصا على البرهان. ونختم الحديث عن مميزات هذا السّفر العظيم بما له علاقة بموضوع بحثنا، فنقول: إنّ البرهان مليء بأنظار نقدية لجملة من الآراء والمسائل التي ذكرها بعض أهل العلم، وله فيها اتجاهات نذكرها في محلها.

المبحث الثاني: معالم النقد في البرهان في علوم القرآن

إنّ المتأمل في كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، يجد فيه أنواع نقدٍ مختلفة، طالت مجالات متعددة، استعمل فيها بدر الدين الزركشي وسائل متغايرة، بنقّس علمي متين، ومنهج حكيم.

المطلب الأول: أنواع النقد في البرهان في علوم القرآن

لقد تضمّن البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي نقداً متنوعاً، حيث نجد فيه نقوداً خاصة، عمِل الزركشي على نقد أشخاص بعينهم، إمّا تصريحاً أو تلميحاً، كما عمل على نقد فِرَقٍ ومؤلفات ذاكراً أسماءها. إضافة إلى هذه النقود الخاصة، نجد نقوداً عامّة موجهة إلى جهات مهمة، وذلك باستعمال ألفاظ متنوعة دالة على النقد. وإذا غيرنا زاوية النّظر إلى اللّمسات النقدية المسجّلة بالبرهان، ألفيناها تنقسم إلى نقد داخلي يتعلق بصُلُب أنواع علوم القرآن معرفياً أو منهجياً، وآخر أقلّ منه درجة من حيث الارتباط بمباحث العلوم القرآنية.

(22) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر، الهند، نشر دائرة المعارف العلمية - ط 1، 1387 هـ، ص 617.

1. النقد في البرهان في علوم القرآن من حيث العموم والخصوص

لقد غطى النقد في البرهان في علوم القرآن مساحة كبيرة من حيث العموم والخصوص، حيث عمل الزركشي على نقد أشخاص بعينهم من خلال نقد أقوالهم ومذاهبهم، وقد وقع ذلك تصريحاً، كما وقع في سياق العام المراد به الخاص، إضافة إلى نقده لمؤلفات بعينها، وفريق باسمها، علاوة على توجيهه بالنقد إلى جهات مُهمّة، سواء تعلق الأمر بأشخاص أو فرق أو مدارس، مُستعملاً ألفاظاً وعباراتٍ دالةً على النقد، كوصف القول بالضعيف، أو الحكم على من رأى رأياً أو ذهب مذهبا بالواهم، كما نجده أحيانا يصف ما ذهب إليه غيره بالبطلان والفساد، إلى غير ذلك من العبارات الدالة على النقد، كالحكم على بعض الأقوال بالزعم أو الخطأ أو الرد أو نفي الصحة عنها، إضافة إلى بعض العبارات التي يفهم منها إرادة النقد، كوقوفه موقف التعجب، أو إيراد الأقوال مع إردافها بالترجيح المخالف لها. وتجدر الإشارة هنا إلى أن العمل النقدي الوارد في البرهان لبدر الدين الزركشي قد اتّصف بالتنوع من حيث ذكره للمزايا والمحاسن، والعيوب والمعائر، مُسهماً بذلك في بناء علوم القرآن وتطويرها.

إنّ المتأمل فيما تضمّنه البرهان في علوم القرآن من فقرات، يخلص إلى إمكانية تقسيم النقد العام إلى قسمين: العام الذي بقي على عمومته، والعام الذي سبق في قالب العموم وأريد به الخصوص، فالنوع الثاني يظهر من خلال القرائن والسياق، ويحتاج إلى دقة في النظر، وسعة في النَّفس، أما الأول، فهو الأصل إذا غابت القرائن واستحال تتبع مظان مقصود الناقد بنقده، فمن الأمثلة التي وقفنا عليها بخصوص النقد العام الذي يفهم منه إرادة الخاص، ما ذكره الزركشي - رحمه الله - في برهانه، وذلك في سياق حديثه عن التجنيس بقوله: «وهو إما بأن تتساوى حروف الكلمتين، كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم، 54]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الصافات، 72-73]، وفي ذلك ردُّ على من قال: ليس منه في القرآن غير الآية الأولى»⁽²³⁾.

إنّ الناظر في قول الزركشي يفهم أنّ قصده هو الردّ على من جعل التجنيس من حيث تساوي حروف الألفاظ مُنحصراً في موضع واحد في القرآن الكريم، وأن رده هذا لم يُعَيّن فيه المردود عليه، حيث تركه مُهماً، أو أن هذا الرد عامٌّ، يتناول كلّ من ذهب المذهب المنتقد، لكن المتأمل فيما أورده الزركشي في النقد المذكور، المتبّع لمظانّ الكلام في مبحث التجنيس يجد أن هذا النقد مُوجّه تحديداً إلى ابن الأثير، هذا الأخير الذي قال في «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» في سياق حديثه عن

(23) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 903.

التجنيس الحقيقي: «فأما القسم الأول، فهو أن تتساوى حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُؤْتُوا عَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وليس في القرآن الكريم سوى هذه الآية، فاعرفها»⁽²⁴⁾، فيكون الزركشي بذلك مُنتقداً لما ذكره ابن الأثير في مسألة انحصار التجنيس الذي تتساوى فيه الحروف في موضع واحد في القرآن الكريم. أمّا فيما يتعلق باللفتات النقدية العامة الواردة في البرهان، التي يصعب إخراجها من السياق العام إلى خانة التخصيص، فكثيرة جداً، يصعب حصرها، وحسبنا أن نذكر بعضها للتمثيل، لا الحصر:

موضوع النقد	الصفحة	الكتاب
انتقاد التمثيل للترصيع	63 – 64	البرهان في علوم القرآن
انتقاد من قال بخلو القرآن من النسخ	348	البرهان في علوم القرآن
انتقاد أحد شروط «صحة النفي عن الشيء»	544	البرهان في علوم القرآن
ردّ اشتراط أن يكون عطف البيان معرفة	592	البرهان في علوم القرآن
الردّ على منكري وجود العام بعد الخاص في القرآن الكريم	597	البرهان في علوم القرآن
انتقاد التمثيل للمتبادلات من الصفات	599	البرهان في علوم القرآن
انتقاد التمثيل لحذف المفعول	724	البرهان في علوم القرآن
انتقاد التمثيل لتغليب المذكر	812 – 813	البرهان في علوم القرآن

لقد تنوّع نقد المعين في البرهان في علوم القرآن من حيث الفئات المستهدفة، وكذا من حيث زوايا النظر إلى المنقود، حيث نجد الزركشي يتوجّه بنقده إلى جهات متنوّعة، يمكن حصرها في الأشخاص والمؤلفات والفرق والمدارس، كما يمكن تقسيم هذا النقد نفسه إلى إبرازٍ للمزايا وكشفٍ عن النقائص والمعائب. أما فيما يتعلق بنقد المؤلفات، فقد أوردها الزركشي في سياقات متعددة، حيث نجد بعضها جاء في سياق التحذير، والبعض الآخر جاء في سياق المقارنة، إلى غير ذلك من السياقات المتنوعة. إضافة إلى النقد الموجّه إلى الكتب، نجد ضرباً آخر من النقد، قصّد به الزركشي أشخاصاً معيّنين، مظهرًا معائب ومزايا طالت إسهاماتهم في علوم القرآن، ونُشير ههنا إلى أنّ نقد الأعيان في البرهان لم يقف عند الأشخاص والمؤلفات، بل تعدّاهما إلى الفرق الكلامية والمدارس اللغوية، فمن الأمثلة على النوع الأخير الواردة في البرهان، نذكر ردّ الزركشي على الكوفيين بقوله: «وزعم الكوفيون أنه يجوز الفصل بين التوكيد والمؤكد، قال الصفرار في شرح سيبويه: والسماع يردّه، قال تعالى ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

(24) ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الفجالة - القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د. ط، ولا. ن)، ج 1، ص 263.

هُمَّ كَفَرُونَ﴾ [هود: 19]، فإن (هم) الثانية تأكيد للأولى...»⁽²⁵⁾، فالزركشي هنا يرد زعم الكوفيين اشتراطهم عدم الفصل بين المؤكد والتوكيد اللفظي، مُورداً أمثلة مُضادة من القرآن الكريم ممَّا ذكره الصفار البطليوسي في شرحه لسيبويه، وانتقاد الزركشي للكوفيين إنما ينصبُّ على القول بعدم الفصل مطلقاً، وإلا فقد قال بعض النحويين المجتهدين باشتراط عدم الفصل بين التوكيد والمؤكد إذا تعلق الأمر بتوكيد التوكيد كقولنا: جاء التلاميذُ كلُّهم أجمعون. يقول ابن مالك في تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ذاكراً هذا المعنى في سياق حديثه عن فصل التابع عن المتبوع: «ويجوز فصله من المتبوع بما لم تتمحض مباينته إن لم يكن توكيد أو نعت مهمم أو شبهه»⁽²⁶⁾.

ونختم هذا المطلب بما أحصينا من النقد الخاص المبتوث في صفحات البرهان:

موضوع النقد	الجهة المنقودة	الكتاب - الصفحة
انتقاد التمثيل لإيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل	الجويني	البرهان في علوم القرآن، ص58
القول بعدم تواتر ما كان من قبيل الأداء في القراءات السبع	أبو عمرو بن الحجاج	البرهان في علوم القرآن، ص223
الردّ على إنكار بعض القراءات، كقراءة أبي عمرو وإدغامه الراء في اللام	الرَّجَّاح	البرهان في علوم القرآن، ص225
ربط الإعجاز القرآني بسلب قدرة الثقلين	فرقة المعتزلة عموماً، والنَّظَّام خصوصاً	البرهان في علوم القرآن، ص385
إنكار المجاز في القرآن الكريم	ابن القاص - ابن خُويز منداد - داود الظاهري - أبو مسلم الأصبهاني	البرهان في علوم القرآن، ص474 / 475
إحلال صيغة مكان أخرى للدلالة على معنى أبلغ وأخصّ	السهيلي	البرهان في علوم القرآن، ص493
تقديم اللغة على القراءة المتواترة	الفارسي	البرهان في علوم القرآن، ص495
التوسع في إعمال الكناية	الرازي	البرهان في علوم القرآن، ص506

(25) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 549-550.

(26) ابن مالك، تحقيق وتقديم محمد كامل بركات، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- (د. ن)، 1388هـ/ 1968م، ص163.

إغلاظ القول في تفسير الآيات القرآنية	الزمرخشي	البرهان في علوم القرآن، ص520
مخالفة البيانين في حصر الاستفهام الإنكاري في الماضي	محمد التنوخي (صاحب الأقصى القريب)	البرهان في علوم القرآن، ص526
التمثيل للتوكيد الصناعي اللفظي	ابن مالك/ ابن عصفور	البرهان في علوم القرآن، ص549
مخالفة القواعد انسجاما مع المذهب العقدي للمعتزلة	الزمرخشي	البرهان في علوم القرآن، ص564
عدم وضوح التمثيل	ابن مالك	البرهان في علوم القرآن، ص570
مخالفة القاعدة التي مفادها أنّ البديل يحمل بيانا غير موجود في المبدل منه	ابن برهان	البرهان في علوم القرآن، ص589
الغلو في اعتبار الاعتراض	الزمرخشي	البرهان في علوم القرآن، ص661
وصف القرآن الكريم بالحشو والزيادة وما شابه ذلك	البصريّون/ الكوفيّون	البرهان في علوم القرآن، ص666
التمثيل المفضي إلى مخالفة القواعد المقررة عند اللغويين	الواحدي	البرهان في علوم القرآن، ص723
مخالفة الأصل في «كان» المتمثل في عدم الإضمار	الكسائي	البرهان في علوم القرآن، ص751
تفضيل الملك على البشر بحجة أسلوب التنقل من الأدنى إلى الأعلى	المعتزلة	البرهان في علوم القرآن، ص793 / 794
تضييق معنى التقديم والتأخير	فخر الدين الرازي	البرهان في علوم القرآن، ص798 / 799
حمل «جَعَلَ» على «الخلق» انسجاما مع عقيدة خلق القرآن	الزمرخشي	البرهان في علوم القرآن، ص1000
اعتبار معنى «لن» للتأييد انسجاما مع عقيدة نفي الرؤية	الزمرخشي	البرهان في علوم القرآن، ص1161

2. النقد الداخلي والخارجي لأنواع علوم القرآن

يمكننا أن نتناول النقد في الكتاب المعني بالدراسة من خلال زوايا متعددة، ففي هذه الفقرة، سنعرض لنوعين من النقد، يتعلق الأول بما له علاقة بصُلب أنواع علوم القرآن، ويدخل في ذلك كل ما له ارتباط بالناحية العلمية لعلوم القرآن، أو الجوانب المنهجية التي لها ارتباط بعلمية مباحث علوم القرآن، والنوع الثاني من أنواع النقد الذي نَرُوم الوقوف عنده، يمثل درجة ثانية بالنسبة للأول من حيث الارتباط بجوهر المباحث المرتبطة بأنواع علوم القرآن، وإلا فنوعًا النقد كلاهما مهمّان، ويتعلق هذا النوع الثاني من النقد بأمور لا تؤثر في ماهية العلم، بل تُعتبر من قبيل التحسينيات، إلا أنه يمكن القول: إن الناظر بعُمق في الانتقادات الخارجية يجد أغلبها مُسوِّغا بتسويغات علمية وجيهة، سواء أفصح المنتقدون عن ذلك أم لم يُفصحوا.

لقد تعددت صور النقد الموجه إلى مباحث أنواع علوم القرآن من الناحية الداخلية، بحيث نجد بدر الدين الزركشي يتكلم عن مسائل تمثل تفاصيل الأنواع، وحيثياتها، ومن الأمثلة على ذلك، الانتقاد الذي أورده الزركشي في البرهان بخصوص نوع (الناسخ والمنسوخ)، في سياق حديثه عن تقسيم بعض العلماء للنسخ إلى ثلاثة أضرب، حيث قال: «الثالث: ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والمغفرة للذين يرجون لقاء الله، ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها ثم نسخه إيجاب ذلك، وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسءٌ، كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنسِئَهَا﴾ [البقرة: 105]»⁽²⁷⁾، نلاحظ أن الزركشي أخرج الصورة المذكورة في الضرب الثالث من مسعى النسخ، وهذا لا شك أنه انتقاد مرتبط بحقيقة مفهوم النسخ، وإخراج ما ليس منه، وبناء عليه، فهو نقد يتعلق بالمعالم الداخلية لمبحث النسخ والمنسوخ، هذا على وجه العموم، أما مناقشة وجه كون الضرب المُنتقد ممّا عدّه البعض نسءًا، فحقيقة النسخ تكمن في إزالة الحكم، أما الانتقال من حكم إلى آخر لعله توجب ذلك الانتقال، فليس من النسخ في شيء، لأن النسخ لا رجعة فيه، بخلاف المنسأ، فمتى زالت علة التخفيف مثلاً، فإنه يُرجع إلى الحكم الأول، وقد ضرب الزركشي مثلاً واضحاً بخصوص النسء، حيث ذكر أن الآيات التي فيها أمر بالصبر في حال الضعف، وآية السيف، لا علاقة لهما بالناسخ والمنسوخ، وإنما يؤمر المكلف بهما معا بحسب توفر علة كل منهما، ففي وقت الضعف يركن المؤمنون إلى الصبر، وعند تحقق القوة يقاتلون، وهذا لا يعني عدم العودة

(27) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص355.

إلى الصبر عند حصول الضعف من جديد، بحجة أن آيات التخفيف منسوخة بآية السيف كما لهج بذلك كثير من المفسرين، يقول الزركشي موضحاً هذا الأمر: «فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الأمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعله توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر وليس بنسخ، إنما النسخ إزالة للحكم»⁽²⁸⁾.

لقد اشتملت مساحة النقد في البرهان في علوم القرآن على نوع خاص من النقد، نقصد بذلك ما تعلّق منه بالجانب الشكلي والمنهجي اللذين لا يستهدفان بشكل مباشر البُعدَ العلمي لما أُلفَ في المباحث القرآنية، ونُشير ههنا إلى أن أغلب الانتقادات في هذا السياق، وإن كانت موجّهة إلى المنهج والصورة، فهي مُسوَّغةٌ عند الزركشي بالإخلالات العلمية التي يُفرضي إليها الإخلال بالجانب الشكلي والمنهجي، والمتأمل في ما ذكره الزركشي بهذا الخصوص، سيجد أن الانتقادات الشكلية والمنهجية تحوي في ثناياها انتقادات علمية دفيئة، تُفهم من خلال السياق.

إنّ كثرة هذا النوع في البرهان، وسهولة الوصول إليه يُغني عن ذكر أمثلته، حيث إنّ أغلب المباحث اللغوية والعقدية التي تطرق إليها الزركشي بالنقد، لا تصبّ ظاهراً في صلب المباحث العلمية للقرآن، إلا أنّ بُعد النظر، وفِراسة البصيرة جعلاه يذكرها لما لها من تعلّق بالمباحث الجوهرية لعلوم القرآن.

المطلب الثاني: وسائل النقد في البرهان في علوم القرآن

اعتمد الزركشي عدّة وسائل في ممارسته النقدية، حيث استدعى أدواتٍ مُسعفةً في بلوغ الأغراض، صالحةً للتدليل على وجوه الاعتراض وزوايا الاستدراك، ولم تختلف هذه الأدوات باختلاف الحقول المعرفية المنقودة، بل نجد الأداة نفسها أحياناً قد وُظّفت في مباحث مختلفة ضمن علوم القرآن، لما تتّسم به من العموم والاستيعاب في الاحتجاج والبرهان والإقناع.

ومن هذه الوسائل نذكر ما يلي:

1. التمثيل المضاد

ولعل من أبرز الانتقادات التي عثرنا عليها في هذا الباب، وألصقها بمباحث علوم القرآن، ما أورده

(28) المرجع السابق، ص355.

الزركشي بخصوص ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، حيث قال بعدما ذكر حديثاً في مصنف ابن أبي شيبة ينص على أن كل شيء نزل فيه «يا أيها الناس» فهو بمكة، وما نزل فيه «يا أيها الذين آمنوا» فهو بالمدينة: «وهذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر فإن سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: 21]، وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168]، وسورة النساء مدنية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]، وفيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: 132]، وسورة الحج مكية وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَأَسْجُدُوا﴾ [الحج: 77]، فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح»⁽²⁹⁾، فالزركشي ينتقد قول من قال: إن كل قرآن فيه «يا أيها الناس» فهو مكِّي، وكل قرآن نزل فيه «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني، وهو يقصد بعض الأئمة، منهم أحمد بن حنبل، كما يقصد المفسرين القائلين بهذا القول⁽³⁰⁾، وانتقاد الزركشي لهذا القول لم يكن عريا من الدليل، بل أورد أمثلة مضادة بين من خلالها عدم اطراد الضابط المذكور، حيث ذكر سورا فيها قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا» وهي مكية، كما ذكر أخرى فيها قول الله تعالى: «يا أيها الناس» وهي مدنية، فدل ذلك على أن هذه الخصيصة أغلبية، لا كليّة.

ونود أن نشير هنا إلى أنّ الزركشي ينتقد أخذ القول المذكور سابقا على إطلاقه، أمّا العمل به باعتباره ضابطا، فهذا لا إشكال فيه، لأن الضوابط والقواعد لها شواذٌ واستثناءات - كما هو معلوم - وعليه، فمحل النقد عند الزركشي هو جعل الضابط المذكور حاكما على نوع القرآن من حيث مكّيته ومدنيته على وجه الإطلاق.

ونختم وسيلة «التمثيل بالمضاد» بالدلالة على أبرز المواضع التي استعملت فيها من خلال الجدول الآتي:

569	إفادة «لن» للتأبيد
637	إفادة «بل» الواقعة في القرآن للاستئناف، لا للإبطال
528	الفعل لا يُستفهم عنه إلا إذا كان مستقبلا
831	اشتراط أن يكون الالتفات في جملتين
550/549	عدم جواز الفصل بين التوكيد والمؤكد
544	من شرط النفي عن الشيء صحة اتّصاف المنفي عنه بذلك الشيء
538	عدم وقوع جواب الشرط مقديما إلا للضرورة

(29) المرجع السابق، ص 134.

(30) المرجع السابق، ص 134.

الاحتجاج بأهل الصنعة والاختصاص

لقد عثرنا على نوع ثاني من الأدوات المستعملة من قِبل الزركشي في النقد، تمثل هذا النوع في الاعتراض والردّ والتخطئة وتفنيد الزعوم بالاستناد إلى أقوال وترجيحات وصُنع أهل الاختصاص في تخصصاتهم، وهذا النقدُ نفسه شهد تنوعاً من حيث طريقة الاحتجاج، إذ نجد الزركشي قد سلك في نقده مسلك الاكتفاء بأقوال غيره، دون أدنى تدخّل منه، كما نجده قد زأج أحياناً بين تدخّله وإيراد أقوال غيره أو صنائعهم الدالة على مقالاتهم في الحيثية المتقدّدة، لذلك لا بدّ من التمييز بين نوعين من النقد عند الزركشي من حيث الاحتجاج بأهل الصنعة والاختصاص وهما: نقد مزدوج، وآخر استنادي صرف.

إنّ من النماذج النقدية التي لم يكتفِ فيها الزركشي بأقوال غيره، بل أدلى بدلوه، وأتى بما يُزكّيها من صنائع أهل الصنعة وأقوالهم، ما أورده في البرهان بقوله: «كان فعل ماض، وإذا وقعت بعد (إن) كانت في المعنى للاستقبال. وقال المبرد: تبقى على الماضي لتجردها للدلالة على الزمان، فلا يغيرها أداة الشرط، قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ﴾ [المائدة: 118]، ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ﴾ [يوسف: 27]، وهذا ضعيف لبنائه على أنها للزمان وحده، والحق خلافه، بل تدل على الحدث والزمان كغيرها من الأفعال، وقد استعملت مع إن للاستقبال، قال تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]، وأما ﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ﴾ فتأوله ابن السراج على تقدير إن أكن قلته، وكذا ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ﴾ إن يكن قميصه»⁽³¹⁾، فالزركشي يردّ قول المبرد الذي ذهب إلى أنّ (كان) لا تكون للاستقبال حال وقوعها بعد (إن) الشرطية، وحقته في ردّه لهذا القول هو انطلاقه من أنّ (كان) للزمان دون الحدث، والحق أنها لهما معا كغيرها من الأفعال، أمّا الأمثلة التي ساقها المبرد فقد تأولها ابن السراج لتدل على الاستقبال، ولا شك أن قول ابن السراج حجة قوية، فهو من أئمة النحو، بل تربع على عرشه بعد وفاة المبرد، وأتقن النحو إتقاناً حتى قيل فيه: كان النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج، يقول شمس الدين الذهبي في مقدمة التعريف بابن السراج: «إمام النحو، أبو بكر محمد بن السري البغدادي، النحوي، ابن السراج، صاحب المبرد، انتهى إليه علم اللسان. أخذ عنه: أبو القاسم الزجاجي، وأبو سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرماني، وطائفة»⁽³²⁾، فوصفُ الذهبي لابن السراج بالإمام في علم النحو، يُعطي الاستدلال بأقواله قوة، كيف لا، وقد تخرّج عليه جبال في النحو، كالسيرافي، والزجاجي والرماني؟ وعليه، فقد احتج الزركشي

(31) المرجع السابق، ص. 997

(32) شمس الدين الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، سير أعلام النبلاء، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/1985م، ج14، ص483 - 484.

على ضعف قول المبرد بقول ابن السراج، أحد كبار رجالات النحو في زمانه، فجمع بذلك بين تعليقه الشخصي لهذا الضعف والاستناد إلى تأويل ابن السراج للآيات أعلاه لتوافق مذهبه في إفادة (كان) للاستقبال حال وقوعها بعد (إن).

ومن الانتقادات التي تصب في الحقل اللغوي، ما أورده الزركشي في سياق تناوله لأساليب القرآن وفنونه البليغة بقوله: «قيل: يُشترط أن يكون عطف البيان معرفة. والصحيح أنه ليس بشرط كقولك: «لبستُ ثوباً جبّةً»، وقد أعرب الفارسي: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: 35]، وكذا ﴿فَكَفَّرْتُهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: 89]»⁽³³⁾، فبدر الدين الزركشي قد انتقد من اشترط أن يكون عطف البيان معرفة، مُصَدِّراً احتجاجه بما هو جارٍ على اللسان العربي، ومثلياً ببعض ما ذهب إليه الفارسي من إعراب بعض الكلمات في القرآن الكريم عطف بيان رغم كونها نكرة، ولا شك أن الاستشهاد بقول الفارسي حجة قوية في الباب، فهو من أئمة اللغة العربية، كيف لا وهو شيخ ابن جني، وأبي الحسن الرماني، وغيرهم من المشهود لهم بالزيادة في اللغة العربية، يقول الفيروزآبادي في سياق التعريف بالفارسي: «برع في النحو، وانتهت إليه رئاسته»⁽³⁴⁾، وقال الخطيب البغدادي: «علت منزلته في النحو، حتى قال قوم من تلامذته: هو فوق المبرد، وأعلم منه»⁽³⁵⁾، إلى غير ذلك من العبارات المتكاثرة التي تنضح بمنزلته العلمية السامقة.

ومن بديع ما وجدنا في الردّ مزوجةً على الزمخشري بخصوص ترتيب «الرحمن الرحيم»، ما جاء في البرهان للزركشي حيث قال: «وهذا قد ذكره الزمخشري: وأجاب عنه بأنه من باب الإرداف، وأنه أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم وأصولها بالرحيم، ليكون كالتتمة والرديف، ليتناول مارق منها ولطف. وفيه ضعف لاسيما إذا قلنا: إن الرحمن علم لا صفة، وهو قول الأعلام وابن مالك، وأجاب الواحدي في البسيط بأنه لما كان الرحمن كالعلم - إذ لا يوصف به إلا الله - قدم، لأن حكم الأعلام وغيرها من المعارف أن يبدأ بها، ثم يتبع الأنكر، وما كان في التعريف أنقص. قال: وهذا مذهب سيبويه وغيره من النحويين فجاء هذا على منهاج كلام العرب»⁽³⁶⁾، فالزركشي ينتقد في هذا المقطع تعليلاً ترتيب «الرحمن الرحيم» من لدن الزمخشري، حيث ذهب هذا الأخير إلى أن الأمر يتعلق بالإرداف الذي قصد

(33) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص. 592.

(34) مجد الدين الفيروزآبادي، البلغة في تراجم أهل النحو واللغة، دمشق، سوريا، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1421هـ/ 2000م، ص. 108.

(35) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1422هـ/ 2002م، ج8، ص. 217.

(36) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص. 616 - 617.

به التتميم، فجيء بما دلّ على عظاميّ التّعّم وجلالته، وجيء بعد ذلك بما دلّ على روافد هذه التّعّم ودقائقها، وذلك من أجل الاستيعاب والمبالغة للدلالة على أنّ مولى التّعّم، أصولها وفروعها، ظواهرها وبواطنها هو الله تعالى، لكنّ الزركشي فسّر الترتيب السابق بمنهاج كلام العرب، حيث إنهم يقدّمون المعارف على النكرات، وذلك استناداً إلى جواب أبي الحسن الواحدي الذي اعتبر فيه «الرحمن» كالعلم، وفسّر تقديمه على «الرحيم» بقاعدة تقديم المعارف على غيرها، فما دام أنّ «الرحمن» صفة لا يوصف بها إلا الله، فقد صارت في حكم العلم، وعليه، فحكمها الصدارة قبل «الرحيم» لأنّها أعرف منها بالاعتبار السابق.

إضافة إلى ما سلف من الوسائل المعتمدة في النقد، نجد وسيلة أخرى تمثّلت في اكتفاء الزركشي بالاستناد إلى أقوال ناقدة لأهل الصنعة والاختصاص، مكْتفياً بالوساطة المجرّدة عن الإدلاء بأرائه الشخصية، فمن هذه النماذج النقدية التي تمّ فيها الاكتفاء بلفظ دالّ على مرجوحية المنقود، وإردافه بحجج أهل الاختصاص، ما ذكره الزركشي بقوله: «وزعم الكوفيون أنه لا يجوز الفصل بين التوكيد والمؤكد قال الصفار في شرح سيبويه: والسماع يرده قال تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: 19] فإن (هم) الثانية تأكيد للأولى...»⁽³⁷⁾، فالملاحظ أنّ الزركشي صدّر كلامه في هذا المقطع بوصف دالّ على مرجوحية اشتراط الكوفيين الوصل بين التوكيد والمؤكد، حيث وصف مذهبهم في هذه الحيثية بالزعم، ولم يُدلّ بما يبرهن به على بطلان الشرط المذكور، بل استند إلى إسماعيل ابن محمد الصفار⁽³⁸⁾، المشهود له بإتقان الصنعة النحوية، حيث استند هذا النحوي إلى السماع، مُورداً أمثلة مضادة من القرآن الكريم، ذُكر فيها التوكيد والمؤكد مُفصولين، فعُلم بذلك أن ما قرّره الكوفيون من عدم جواز الفصل بينهما مجرد زعم، وأنّ هذه القاعدة لا تصمد أمام الأمثلة الكثيرة التي نقلها الزركشي عن الصفار.

المطلب الثالث: مجالات النقد في البرهان في علوم القرآن

لقد استمدّ النقد في علوم القرآن عند الزركشي غنّاه من عدة أسس ومُعطيات، ومن هذه الأسس نجد تعدّد المجالات التي توجّه إليها النقد وتنوّعها، حيث انطوت على نطاقات عدة كالعقيدة، والتفسير، والقواعد اللغوية والبيانية، وكذا الجانب التمثيلي، ولا شك أن هذه الدوائر التي شكّلت ساحةً للعمل

(37) المرجع السابق، ص 549-550.

(38) إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن صالح بن عبد الرحمن الصفار الثقة الإمام النحوي المشهور حدث عن الحسن بن عرفة وأحمد بن منصور الزياتي والكبار وانتهى إليه علو الإسناد روى عنه الدارقطني وابن منده والحاكم ووثقوه. ينظر: ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 2، 1390هـ/1971م، ج 1، ص 432.

النقدي، قد أضفت عليه جمالية وسدادا وثراء. ونُشير قبل الولوج إلى الحديث عن المجالات تفصيلا، إلى أننا سنكتفي بالتمثيل لبعض المجالات فقط حرصا منا على الاختصار.

1. المجال التمثيلي

يُعتبر التمثيل من أهم مقاربات الإفهام والتقريب للمعاني غائرة المعالم، إلا أن الممثلين يُوردون أحيانا أمثلة غير مطابقة للمُمثَّل له، وهذا يدل على أن تلك الأمثلة إما أن تكون مُختَلَفًا فيها، أو أن الممثل لم يفهم ما مَثَّلَ له بشكل جيد، كما أن الخطأ في إيراد المثال غير المناسب قد يكون بسبب عدم فهم سياق هذا المثال وضبطه، ومن أمثلة النقد الوارد في باب التمثيل، ما أورده الزركشي بخصوص مثال مشهور يُمثَّل به لقسم الاكتفاء في باب الحذف، أي حذف أحد المتلازمين اكتفاءً بالأخر، يقول الزركشي في هذا السياق: «والمشهور في مثال هذا النوع قوله تعالى: ﴿سَرَبِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: 81] أي: والبرد هكذا قدروه»⁽³⁹⁾، ثم أردف مُبينًا أن هذا المثال لا يصح أن يكون من هذا القسم بقوله: «والحق أن الآية ليست من هذا القسم، فإن البرد ذكر الامتنان بوقايته قبل ذلك تصريحًا في قوله: ﴿وَمِنْ أَسْوَافِهَا وَأُوبَارِهَا وَشُعَارِهَا﴾ [النحل: 80] وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَثًا﴾ [النحل: 81] وقوله في صدر السورة: ﴿وَالأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: 5]»⁽⁴⁰⁾، فالزركشي ينتقد مَنْ جَعَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَرَبِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: 81] من قِسْمِ الإِكْتِفَاءِ فِي الحذف، عملاً بمفهوم الاكتفاء الذي يقتضي فيه المقام ذُكر شينين بينهما تلازم وارتباط، فيُكتفى بِذِكْرِ أَحدهما عن الآخر، ففي الآية الواحدة والثمانين من سورة النحل تَمَّ ذِكْرُ (الحَرِّ)، ولم يُستغْنَ عن ذِكْرِ (البرد)، بل ذُكر في سياق الامتنان بوقايته في نفس الآية، كما ذُكر في صدر سورة النحل.

إن المتأمل في انتقاد الزركشي لمن جعل قوله تعالى ﴿سَرَبِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ متضمنًا لحذف الاكتفاء، يخلص إلى أن الانتقاد المتكلم عنه لا يمسُّ أصل الأسلوب، وإنما يستهدف التمثيل، فالإكتفاء في الحذف ثابت في اللغة، لكن الانتقاد يتعلق بغياب مطابقة المثال للأسلوب.

ومن الأمثلة التي تصبُّ في النقد المتعلق بالتمثيل أيضًا، ما توجَّه به الزركشي إلى ابن فارس بخصوص إطلاق الجمع وإرادة الواحد، حيث قال: «وجعل منه ابن فارس قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 36]، والرسول كان واحداً بدليل قوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: 38]. وفيه نظر من جهة أنه يحتمل مخاطبة رئيسهم، فإن العادة جارية لاسيما

(39) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 696.

(40) المرجع السابق، ص 696.

من الملوك ألا يرسلوا واحداً»⁽⁴¹⁾، فابن فارس قد جعل الآية السادسة والثلاثين من سورة النمل من قسم (إطلاق الجمع وإرادة الواحد)، حاملاً إياها على الآية الثامنة والثلاثين من نفس السورة، أي أنّ الجمع (المرسلون) يُراد به الواحد، بدليل مخاطبته للمُرسل بصيغة الإفراد (أرْجِعْ) في الموضع الآخر، إلا أن ملاحظَ الزركشي كان قويا، حيث اعتبر أنّ (المرسلون) جمع مُطابق للمقصود به، أي أنه جمع أُريد به الجمع، وجَعَلَ صيغة المفرد الواردة في قوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: 38] لا دليل فيها على إرادة الواحد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 36]، مُستديلاً على ذلك بالعادة التي كان عليها الملوك، وهي إرسال الجماعة، لا الواحد، واستخلص احتمال كون المُخاطب المفرد هو رئيس المُرسلين، وليس المرسل الواحد. ونودُّ أن نُشير في هذا السياق - كما أشرنا سابقاً - إلى أن الزركشي لم ينتقد ابن فارس في أصل الأسلوب (إطلاق الجمع وإرادة الواحد)، بل انتقده في صحة المثال الذي جعله مُندرجاً تحت الأسلوب المذكور، نافياً أن يكون الدليل الخارجي (إرجع إليهم) معضداً لمذهبه، وذلك لأن هذا الدليل الخارجي يتطرق إليه الاحتمال (مخاطبة رئيس المرسلين). والطرح الذي جاء به الزركشي في سياق هذا النقد مُؤيّد بما جاء في بعض التفاسير، فقد ذهب القرطبي في الجامع لأحكام القرآن المذهب نفسه، حيث قال في سياق تفسيره لسورة النمل: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ أَي قَالَ سُلَيْمَانُ لِلْمُنْذِرِ بْنِ عَمْرٍو أَمِيرِ الْوَفْدِ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّتِهِمْ»⁽⁴²⁾، كما نجد البيهقي يقرر في معالم التنزيل الاحتمال نفسه الذي أشار إليه الزركشي بقوله: «ثُمَّ قَالَ لِلْمُنْذِرِ بْنِ عَمْرٍو أَمِيرِ الْوَفْدِ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، بِالْهَدِيَّةِ، فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ، لَا طَاقَةَ لَهُمْ، بِهَا وَلَنُخْرِجَهُمْ مِنْهَا، أَي مِنْ أَرْضِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَهِيَ سَبَأٌ، أَذَلَّةٌ وَهُمْ صَاغِرُونَ، ذَلِيلُونَ إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»⁽⁴³⁾.

2. المجال اللغوي والبلاغي

لا شك أن الإعراب يميّز المعاني، ويُوقِف على أغراض المتكلمين، لذلك وضع العرب لكل باب شرائطه، ولا بد للمُعربين من مراعاة هذه الشرائط واحترامها تجنباً للخطأ المُفضي إلى معانٍ غير مقصودة، ويحسن بي في هذا المقام أن أعرض بعضَ النماذج من الانتقادات بخصوص ما وقع

(41) المرجع السابق، ص 626.

(42) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية - ط 2، 1384هـ/1964م، ج 13، ص 201.

(43) الحسين بن مسعود البيهقي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي ط 1، 1420هـ، ج 3، ص 504.

من الوهم لبعض المعربين نتيجة عدم مُراعاة الشروط بحسب الأبواب، فمن بين هذه الانتقادات، نجد بدر الدين الزركشي يستدرِك على الزمخشري إعراب (من وجدكم) عطف بيان في قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: 6] بقوله: «وزعم الزمخشري في قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: 6]، أن (من وجدكم) عطف بيان. وهو مردود، فإن العامل إنما يعاد في البديل لا في عطف البيان»⁽⁴⁴⁾، فبدر الدين الزركشي ينتقد أبا القاسم الزمخشري إعرابه (من وجدكم) عطف بيان، مُستندا في انتقاده إلى قاعدة عدم جواز تكرر العامل في عطف البيان، حيث إنّ العامل (أسكنوهن) هو عامل لـ (من حيث سكنتم) ولد (من وجدكم)، وما دام العامل تكرر، فإن الأمر يتعلق بالبديل لا بعطف البيان.

ومن الأمثلة البلاغية المنسجمة وهذا السياق، ردّ بدر الدين الزركشي على صاحب (الأقصى القريب)⁽⁴⁵⁾ كون استفهام الإنكار قد يكون عن مستقبل، وذلك بقوله: «وخالف في ذلك صاحب الأقصى القريب وقال: قد يكون عن مستقبل... وهذا الذي قاله مخالف لإجماع البيانين، ولا دليل فيما ذكره... وقد ذكر ابن جني في التنبيه أن الإعراب قد يرد على خلاف ما عليه المعنى»⁽⁴⁶⁾، فالزركشي قد انتقد محمد التنوخي في مخالفته لإجماع البيانين، المتمثل في حصر الاستفهام الإنكاري في زمن الماضي، وأجاب عن الأمثلة التي أوردها التنوخي، والتي تتضمن أفعالا في المضارع مع حملها معنى الإنكار، بأن تلك الأفعال، وإن كانت في زمن المستقبل، فإنها تدل على الماضي بالنظر إلى سياقاتها، فالإعراب يأتي أحيانا على خلاف المعنى.

3. المجال العقدي

اشتمل البرهان في علوم القرآن نقداً كثيراً في مجال العقيدة، انصبّ بالخصوص على عقائد المعتزلة وروادها الذين استفرغوا جهدهم في التأسيس لهذه العقائد ونشرها، وعلى رأس هؤلاء نجد أبا القاسم الزمخشري الذي شكّل فكره العقدي محور العمل النقدي عند الزركشي، يقول في سياق انتقاده له بخصوص ما يُسمّى بالإيجاب العقلي، وهو يتحدث عن معاني الحروف التي يحتاج إليها المفسّر، ومعنى (لعل) على سبيل الخصوص: «وقد قال الزمخشري: وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، لكنه كريم رحيم، إذا أطمع فعل ما يطمع لا محالة، فجرى إطماعه مجرى وعده، فلهذا قيل:

(44) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 593.

(45) المقصود به: زين الدين محمد بن محمد التنوخي (توفي 749 هـ).

(46) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 593.

إنها من الله واجبة. وهذا فيه رائحة الاعتزال في الإيجاب العقلي، وإنما يحسن الإطماع دون التحقيق، كيلا يتكل العباد⁽⁴⁷⁾، يرى الزرمخشري أنّ (لعل) الواردة في سياق الإطماع تُفيد تحقق المطمَع فيه وجوباً، حيث إنّ الإطماع يجري مجرى الوعد الذي «يقصدون به إيجاب وقوع الثواب للمطيع»⁽⁴⁸⁾، فالمعتزلة، وعلى رأسهم الزمخشري يرون أنّ إطماع الله للعباد يستوجب فعل ما أطمع لا محالة، حيث يعتقدون أنّ ما ورد في سياق الإطماع، فإن الله لا يجوز في حقه الخلف والكذب، ولا بد أن يحقق الوعد للموعود، في حين أن الزركشي يعترض على هذا المعتقد، ذاهباً إلى أن الإطماع يحسن دون التحقيق خلافاً لما يُسمّى عند المعتزلة بالإيجاب العقلي.

ومن المسائل العقدية التي انتقد فيها الزركشي المعتزلة، نفي رؤية الله تعالى، وانتقاده لهم في هذه المسألة لم يكن مباشراً، وإنما تمّ من خلال انتقاده لمعنى (لن) الذي تشبثوا به وجعلوه ركناً ركيناً في التأصيل لنفي الرؤية، يقول الزركشي في هذا السياق: «والحق أنّ لا ولن مجرد النفي عن الأفعال المستقبلية، والتأبيد وعدمه يؤخذان من دليل خارج، ومن احتجّ على التأبيد بقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 23]، وبقوله: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ [الحج: 71]، عُورض بقوله: ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْشِيًا﴾ [مريم: 25]، ولو كان للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم، وبقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: 94]، ولو كانت للتأبيد، لكان ذكر الأبد تكريراً والأصل عدمه»⁽⁴⁹⁾، فالزركشي يردّ على المعتزلة ومن ذهب مذهبهم في القول بإفادة (لن) للنفي مع التأبيد، مُستعرضاً لأدلة قوية، أظهرها حجة وأقواها إفحاماً تصدير الجملة الفعلية ب (لن) مع الإتيان بلفظ (أبداً) للدلالة على التأبيد، إذ لو كانت (لن) تفيد التأبيد بذاتها، لكان لفظ (أبداً) من باب التكرار، والأصل عدمه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذهاب المعتزلة إلى الأصل السالف اليكّر إنما حصل تأسيساً لمذهبهم في نفي رؤية الله تعالى، لكن إعطاءهم (لن) معنى التأبيد دعوى لا دليل عليها، والذي يؤكد ذلك أقوال اللغويين ومذاهبهم التي تدل دلالة واضحة على بطلان مذهب المعتزلة في إفادة (لن) للنفي مع التأبيد، وللتمثيل على ذلك نفتح نافذة على الباب الثاني في الثنائي من كتاب الجنى الداني في حروف المعاني، مبحث (لن)، فنجد ابن قاسم المرادي يقول: «لن حرف نفي، ينصب الفعل المضارع، ويخلصه للاستقبال. ولا يلزم أن يكون نفيها مؤبداً، خلافاً للزمخشري»⁽⁵⁰⁾، وإذا قمنا بإطالة على دلالات النفي في كتاب معاني النحو

(47) المرجع السابق، ص 1165.

(48) راند بن أبي علفة، معجم البدع، الرياض- السعودية، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ/1996م، ص482.

(49) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 569.

(50) بدر الدين بن قاسم المرادي، تحقيق: د فخر الدين قباوة - الأستاذ محمد نديم فاضل، الجنى الداني في حروف المعاني، بيروت

وجدناه يُشير إلى مجرد النفي مع التأكيد بقوله: (لن لتوكيد النفي في المستقبل)⁽⁵¹⁾. وإذا عُدنا إلى سُروح بعض الكتب النحوية لابن هشام، وجدناه يرد بدوره على مذهب المعتزلة من خلال الردّ على الزمخشري بقوله: «وَلَنْ حَرَفَ يَفِيدُ النْفِي وَالِاسْتِقْبَالَ بِالِاتِّفَاقِ وَلَا يَقْتَضِي تَأْيِيدًا خِلَافًا لِلزَّمْخَشَرِيِّ فِي أَنْمُودَجِهِ وَلَا تَأْكِيدًا خِلَافًا لَهُ فِي كِشَافِهِ بَلْ قَوْلِكَ لَنْ أَقُومُ مُحْتَمَلٌ لِأَنْ تَرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّكَ لَا تَقُومُ أَبَدًا وَأَنَّكَ لَا تَقُومُ فِي بَعْضِ أَزْمَنَةِ الْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِكَ لَا أَقُومُ فِي عَدَمِ إِفَادَةِ التَّأْكِيدِ»⁽⁵²⁾.

لقد غطّى النقد العقدي في البرهان في علوم القرآن مساحة كبيرة، ويكفي العودة إلى هذا السّفر العظيم للاطلاع عليها، فالخُلوص إليها أيسر لكثرتها، لكن لا بأس من ذِكر أبرز التّمادج لمن أثار الاقتصاد في التحصيل بدل الإغراق:

الصفحة	موضوع الانتقاد
794 – 793	استدلال المعتزلة بالأسلوب البلاغي المتمثل في التقديم والتأخير على تفضيل الملّك على البشر بحجة التنقل من الأدنى إلى الأعلى
564	مخالفة الزمخشري قاعدة إفادة الحصر عند تقديم ما حقّه التأخير، وذلك انسجاماً مع مذهبه العقدي
1000 - 999	حمل الزمخشري الفعل (جَعَلَ) على الخلق في قوله تعالى: ﴿Zö﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴿[الزخرف: 2]

4. المجال التفسيري

لقد شهد التفسير إلى جانب مجالات النقد السابقة نقداً مُتنوعاً، بحيث وُجّه بعضٌ منه إلى بعض المعاني المتعلقة بالآيات، مع بيان وجه النقد فيها أحياناً، ووُجّه البعض الآخرُ منه إلى المفسّرين ومؤلفات التفسير على وجه الإجمال، فمن الانتقادات الموجهة إلى المادة التفسيرية المتمثلة في بيان معاني الآيات،

– لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/1992م، ص270.

(51) فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، الأردن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – ط1، 1420هـ/2000م، ج4، ص216.

(52) جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، شرح قطر الندى وبل الصدى، دمشق- سوريا،

دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1410هـ/1990م، ص61.

ما توجّه به الزركشي إلى الزمخشري بسبب إغلاظه القول في حق رسول الله ﷺ حين تفسيره لقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ [التوبة: 43]، يقول الزركشي مُنتقداً تفسير الزمخشري للآية: «وما أطف ما عاتب الله به خير خلقه بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]، ولم يتأدب الزمخشري بأدب الله تعالى في هذه الآية»⁽⁵³⁾، ولا شك أن الزركشي يقصد مسلك الزمخشري في عدم التأدّب مع رسول الله في تفسيره الكشّاف، حيث جاء في هذا الأخير: «عفا الله عنك كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت. ولم أذنت لهم بيان لما كنى عنه بالعفو، ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنونك واعتلوا لك بعلمهم وهلا استأنيت بالإذن حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه. وقيل شيئان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه الله تعالى»⁽⁵⁴⁾، وإغلاظ القول في تفسير الزمخشري للآية يظهر بجلاء عند الرجوع إلى كلام المفسرين في سياق تفسيرها ومقارنته بها، كما يُلوح بالعودة إلى غير المفسرين ممن تناول الآية بالبيان والتعليق في المؤلفات التي تُعنى بالشمائل وغيرها من الكتب، فالبغوي مثلاً، يقول في معرض تفسيره لسورة التوبة عند تناوله لقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]: «قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يعيره بالذنب. وقيل: إن الله عز وجل وقره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي، ورضي الله عنك ألا زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو. لم أذنت لهم، أي: في التخلف عنك حتى يتبين لك الذين صدقوا، في أعذارهم، وتعلم الكاذبين فيما، أي: تعلم من لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ»⁽⁵⁵⁾، يظهر مما أورده البغوي من الأقوال صريح الأدب مع رسول الله ﷺ، كما يبدو اللطف جلياً في عتاب الله لنبيه ﷺ، هذا اللطف الذي خلا منه تفسير الزمخشري وهو يُدلي بدلوه في الحديث عن العتاب الصادر من الله إلى خير خلقه ﷺ، فالله عز وجل عاتب نبيه ﷺ في قالبٍ من التوقيير ورفع المحلِّ، مُفتتحاً عتابه بالدعاء له، لكن الزمخشري لم يستوعب هذا العتاب المشوب بالتوقيير الذي يدل على غاية اللطف من الرب بنبيه ﷺ. إنَّ من أكثر التفسيرات أدباً مع رسول الله ﷺ بخصوص الآية السابقة، ما جاء في المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، حيث قال أحمد بن محمد القسطلاني: «وأما قول بعضهم

(53) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص. 520

(54) محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، القاهرة - مصر، دار الريان للتراث، ط3، 1407هـ/ 1987م، ج2، ص. 274.

(55) الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1420هـ، ج2، ص. 354.

إن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ذنب لأنه تعالى قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ والعفو يستدعي سالفه ذنب، وقول الآخر: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، فاعلم أنا لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ يوجب ذنبا، ولم لا يُقال إن ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيره، إذا كان عظيما عنده: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري، ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي، وعافاك الله ألا عرفت حقي، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التعظيم والتبجيل، وليس عفا هنا بمعنى: «غفر»⁽⁵⁶⁾، يُلاحظ أن القسطلاني سلك في كلامه عن العفو مسلك الأدب، بل حمل معناه على أطف المحامل، فهو لم يقل: إن العفو يقتضي الوقوع في الذنب، وأن الرسول ﷺ أخطأ، واقترب مخالفة مذموم صاحبها - كما قال الزمخشري - كما أنه لم يسلك مسلك من قال بأن الله عز وجل قابل إذن رسول الله ﷺ للمتخلفين بالعتاب الممزوج بالتعظيم مع المغفرة، بل ذهب مذهبا فريدا، وهو أن النبي ﷺ لم يصدر منه ذنب، باعتبار أن العفو لا يستلزم الخطيئة، وإنما قد يُراد بالعفو زيادة التعظيم والتبجيل، فالمقام عند القسطلاني مقام تعظيم، وليس مقام تقريع - كما زعم البعض - وعليه، فالاستفهام الوارد في الآية ليس للإنكار، بل الغرض منه ما تمت الإشارة إليه آنفا.

ومن الردود المسجلة في مجال التفسير، ردُّ الزركشي تسويغات الزمخشري وغيره بخصوص ورود ألفاظ في القرآن الكريم، حيث ذهبوا إلى أن إيقاعها للإيضاح لا للتأكيد، يقول الزركشي في هذا السياق: «وأما قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: 281] فإنما ذكر قوله: (بدين) مع (تداينتم) يدل عليه لوجوه: أحدها: ليعود الضمير في (فاكتبوه) عليه إذ لو لم يذكره لقال: «فاكتبوا الدين» ذكره الزمخشري وهو ممنوع لأنه كان يمكن أن يعود على المصدر المفهوم من (تداينتم) لأنه يدل على الدين. الثاني: أن (تداينتم) مفاعلة من الدَّيْنِ ومن الدَّيْنِ فاحتيج إلى قوله: (بدين) ليبين أنه من الدين لا من الدين وهذا أيضا فيه نظر لأن السياق يرشد إلى إرادة الدَّيْنِ...»⁽⁵⁷⁾.

يُفهم من خلال كلام الزركشي أن كلمة (دَيْنٍ) إنما جيء بها للتأكيد، خلافا لما ذهب إليه الزمخشري وغيره من العلماء الذين اعتبروا مجيء هذه اللفظة ضروريا من الناحية اللفظية والمعنوية، فإذا عدنا إلى الكشَّاف وجدنا الزمخشري يقول: «فإن قلت: هلا قيل: إذا تداينتم إلى أجل مسمى، وأي حاجة إلى ذكر الدَّيْنِ كما قال: داينت أروى، ولم يقل: بدَيْنٍ؟ قلت: دُكر ليرجع الضمير إليه في قوله فاكتبوه،

(56) أحمد بن محمد القسطلاني، تحقيق: صالح أحمد الشَّامي، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي،

ط2، 1425هـ/2004م، ج3، ص256.

(57) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 255-256.

إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال: فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن»⁽⁵⁸⁾، فالزمخشري يرى أن إيقاع تلك اللفظة في الموقع الذي وردت فيه يُعطي للنظم حُسناً، لأن عدم ذكرها في ذلك الموقع يؤدي إلى ورودها بعد الكتابة، فيُقال: فاكتبوا الدِّينَ، وهو أسلوب ركيك، غير جيّد، وعليه وجب ذكر الدِّينِ أوّلاً ليعودَ عليه الضمير في (فاكتبوه)، وبناء على هذا تكون كلمة (دِّين) تأسيسية لا تأكيدية عند الزمخشري، بينما يعترض عليه الزركشي بأنه يمكن أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من ﴿نَدَائِنْتُمْ﴾، لأنه يدل على الدِّينِ، هذا في ما يتعلق بانتقاد الزركشي لما ورد في ما جاء في الكشف بخصوص آية الدِّينِ، أمّا انتقاده لمن علّلَ مجيء لفظة (دِّين) بتأسيس فائدة معنوية تتمثل في التفريق بين الدِّينِ والدِّينِ، فقد ذهب إلى أنه لا حاجة إلى قوله تعالى ﴿بَدِّينِ﴾، لأن السياق حاسم في بيان المُراد بالمدايِنَةِ، إذ السياق من سُبُل تعيين المُراد باللفظ المُشترك - كما هو معلوم -.

ونختم انتقادات الزركشي للزمخشري في مجال التفسير باعتراض يتعلق بالمبالغة في اعتبار أسلوب الاعتراض بقوله: «وجعل الزمخشري قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ في آخر الصفات معطوفاً على ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ في أول السورة: وقال في قول بعضهم في: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ إنه حال من فاعل [قم] في أول هذه السورة، هذا من بدع التفاسير وهذا الذي ذكره في الصفات منه»⁽⁵⁹⁾، فالزمخشري انتقد صنيع من جعل ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ حالاً من فاعل (قم) في مطلع سورة المدّثر، وعدّه من بدع التفاسير، لكنه وقع في ما انتقده، حيث اعتبر قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ في آخر سورة الصفات معطوفاً على ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ في أول السورة بقوله: «﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ معطوف على مثله في أول السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة: أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلاً، ثم ساق الكلام موصولاً بعبءه ببعض، ثم أمره باستفتاءهم عن وجه القسمّة الضيّزى التي قسموها، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهن»⁽⁶⁰⁾، فالزركشي يعتبر العطف الذي ذكره الزمخشري صورة من صُور بدع التفاسير بناء على ما قرره الزمخشري نفسه وهو يصف من جعل ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ حالاً من فاعل (قم) في بداية سورة المدّثر، ويظهر لنا من خلال العودة إلى تفاسير المتقدمين، أنها لا تتوسّع في أسلوب الاعتراض، وما يرتبط به من إيجاد العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم المتباعدة، لذلك يُمكن اعتبار وصف صنيع

(58) محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مرجع سابق، ج1، ص325.

(59) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص661.

(60) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مرجع سابق، ج4، ص63.

الزمخشري بالابتداع من لدن الزركشي بالموضوعي، لأنّ القائم بدراسة مسحية لما ورد في التفاسير السابقة للكشّاف في المواضع التي ربط فيها الزمخشري بين ألفاظ قرآنية بعيدة جدًا، يجد أنّ مذهب أبي القاسم الزمخشري مُحدّث من حيث التوسّع في تتبّع الخيوط النازمة للألفاظ القرآنية المتباعدة مكانا وسياقا.

خاتمة:

توصّل البحث إلى جملة من النتائج، منها أنّ النقد بدأ مُلزامًا للأدب، ثم انتقل إلى الانفتاح على الحقول المختلفة، والعلوم المتنوّعة، خارجًا من دائرة الضيق إلى مساحة السّعة والمرونة، وفي سياق المفاهيم نفسها، خلصنا إلى أنّ الحدود الواردة بخصوص علوم القرآن بالمعنى المعاصر فيه نظر من حيث جهات خدمة القرآن (تاريخه، تفسيره...) وكذا من حيث وجه هذه الخدمات (كَلّي/ تفصيلي) ممّا جعلنا نثمن التعريفَ القائلَ صاحبه: «ما يخدم القرآن من حيث تاريخه وقراءته وتفسيره على وجه كَلّي».

وبعد تتبع المادّة النقدية المستخرجة من البرهان، انتهينا إلى أنّ النقد الممارس من لدن الزركشي شهد غنى كبيرًا، مُتّسما بالتنوّع، حيث نجده يتوجّه بالنقد إلى جهات معيّنة أحيانًا، ويُطلقه أحيانًا أخرى، إلا أنّ الباحث يمكنه نقل النوع الثاني إلى مساحة الأول، وذلك بالعودة إلى القرائن والسياقات، وتتبع المظان، كما ألفينا الزركشي ينتقد مباحث علوم القرآن ومسائلها من حيث القرب والبعد من صُلها. لقد توصلنا من خلال هذا البحث أيضا إلى استعمال الزركشي لوسائل عدّة في ممارسته النقدية، منها: التمثيل المضاد، والاحتجاج بأهل الصنعة والاختصاص، علاوة على الجمع بين آرائه العلمية والاستناد إلى الغير في المسائل المنقودة نفسها.

أما المجالات، فخلصنا من خلالها إلى رسوخ قدم الزركشي وموسوعيته في حقول معرفية شتى، حيث وجدناه ينتقل في نقده من اللغة، إلى العقيدة، إلى التفسير، وهكذا.

ويحسّن بنا في الختام أن نشير إلى أنّ بحثنا هذا غاية ووسيلة، فمادّته العلمية، وتصنيفها إضافة علمية، كما أنّه يفضي بالقارئ إلى طرح السؤال الآتي: ما أثر النقد الموجود بتفاصيله المذكورة سلفا في بناء علوم القرآن وتطويرها؟ لذلك نوصي أنفسنا، والباحثين، بتتبع أثر النقد في البرهان خلال مرحلته، وما بعدها من المراحل.

المراجع:

- ابن حجر العسقلاني، أ. ب. ع. (1971). *لسان الميزان* (ط2). مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- ابن قاضي شهبة، أ. ب. (1407هـ). *طبقات الشافعية* (ط1). عالم الكتب.
- ابن مالك، م. ب. ع. (1968). *تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد* (تحقيق: محمد كامل بركات). دار الكاتب العربي.
- ابن فارس، أ. ب. أ. (1979). *معجم مقاييس اللغة* (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1). دار الفكر.
- أبو شهبة، م. ب. م. (1987). *المدخل لدراسة القرآن الكريم* (ط3). دار اللواء.
- عباس، إ. (1983). *تاريخ النقد الأدبي عند العرب* (ط4). دار الثقافة.
- ابن حجر العسقلاني، أ. ب. ع. (1387هـ). *إنباء الغمر بأبناء العمر* (ط1). دائرة المعارف العلمية.
- القسطلاني، أ. ب. م. (2004). *المواهب اللدنية بالمنح المحمدية* (تحقيق: صالح أحمد الشامي، ط2). المكتب الإسلامي.
- المرادي، ب. ب. ق. (1992). *الجنى الداني في حروف المعاني* (تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط1). دار الكتب العلمية.
- الزركشي، ب. ب. م. (2018). *البرهان في علوم القرآن* (تحقيق: أبي الفضل الدمياطي). دار الحديث.
- ابن هشام الأنصاري، ج. ب. ع. (1990). *شرح قطر الندى وبل الصدى* (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1). دار الخير.
- حيدر، ح. س. (2006). *علوم القرآن بين البرهان والإتقان: دراسة موازنة* (ط2). دار الزمان.
- البغوي، ا. ب. م. (1420هـ). *معالم التنزيل في تفسير القرآن* (تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط1). دار إحياء التراث العربي.
- الخطيب البغدادي، أ. ب. ع. (2002). *تاريخ بغداد* (تحقيق: بشار عواد معروف، ط1). دار الغرب الإسلامي.
- ابن أبي علفة، ر. (1996). *معجم البدع* (ط1). دار العاصمة.
- الزرقاني، م. ع. (د.ت). *مناهل العرفان*. دار إحياء التراث العربي.
- الزركلي، خ. (2002). *الأعلام* (ط15). دار العلم للملايين.
- الذهبي، ش. ب. أ. (1985). *سير أعلام النبلاء* (تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط3). مؤسسة

الرسالة.

ابن الأثير، ض. ب. م. (د.ت). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. دار نهضة مصر.

السامرائي، ف. ص. (2000). معاني النحو (ط1). دار الفكر.

الأنصاري، ف. (1997). أبحاث في العلوم الشرعية (ط1). دار الفرقان.

الفيروزآبادي، م. ب. ي. (2000). البلغة في تراجم أهل النحو واللغة (ط1). دار سعد الدين.

مجموعة مؤلفين. (2019). علوم القرآن: إشكالية المفهوم والمنهج والوظيفة (ط1). مطبعة المعارف الجديدة.

القرطبي، م. ب. أ. (1964). الجامع لأحكام القرآن (تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2). دار الكتب المصرية.

ابن منظور، م. ب. م. (1992). لسان العرب (ط1). دار صادر.

الزمخشري، م. ب. ع. (1987). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (ط3). دار الريان للتراث.

القطان، م. خ. (2011). مباحث في علوم القرآن (ط1). مؤسسة الرسالة.

References:

Anīs, I., Muntasir, A. H., al-Ṣawālīḥī, 'A., & Aḥmad, M. Kh. (2004). *al-Mu'jam al-Wasīṭ* (4th ed.). Academy of the Arabic Language; al-Shurūq International Library.

Ibn Ḥajar al-'Asqalānī, A. b. 'A. (1971). *Lisān al-Mizān* (2nd ed.). al-A'lamī Foundation.

Ibn Qāḍī Shuhbah, A. b. (1407 AH). *Ṭabaqāt al-Shāfi'iyyah* (1st ed.). 'Ālam al-Kutub.

Ibn Mālik, M. b. 'A. (1968). *Tashīl al-Fawā'id wa-Takmil al-Maqāsid* (M. K. Barakāt, Ed.). Dār al-Kātib al-'Arabī.

Ibn Fāris, A. b. A. (1979). *Mu'jam Maqāyīs al-Lughah* ('A. M. Hārūn, Ed., 1st ed.). Dār al-Fikr.

Abū Shuhbah, M. b. M. (1987). *al-Madkhal li-Dirāsāt al-Qur'ān al-Karīm* (3rd ed.). Dār al-Li-wā'.

'Abbās, I. (1983). *Tārīkh al-Naqd al-Adabī 'inda al-'Arab* (4th ed.). Dār al-Thaqāfah.

Ibn Ḥajar al-'Asqalānī, A. b. 'A. (1387 AH). *Inbā' al-Ghumr bi-Abnā' al-'Umr* (1st ed.). Dā'irat al-Ma'ārif al-'Ilmiyyah.

- al-Qasṭallānī, A. b. M. (2004). *al-Mawāhib al-Ladunniyyah bi-al-Minaḥ al-Muḥammadiyyah* (Ş. A. al-Shāmī, Ed., 2nd ed.). al-Maktab al-Islāmī.
- al-Murādī, B. b. Q. (1992). *al-Janā al-Dānī fi Hurūf al-Maʿānī* (F. al-Dīn Qabāwah & M. N. Fāḍil, Eds., 1st ed.). Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah.
- al-Zarkashī, B. b. M. (2018). *al-Burhān fi ʿUlūm al-Qurʾān* (A. al-Faḍl al-Dimyāṭī, Ed.). Dār al-Ḥadīth.
- Ibn Hishām al-Anṣārī, J. b. ʿA. (1990). *Sharḥ Qaṭr al-Nadā wa-Ball al-Ṣadā* (M. M. ʿAbd al-Ḥamīd, Ed., 1st ed.). Dār al-Khayr.
- Ḥaydar, Ḥ. S. (2006). *ʿUlūm al-Qurʾān bayna al-Burhān wa-al-Itqān: Dirāsah Muwāzanah* (2nd ed.). Dār al-Zamān.
- al-Baghawī, al-Ḥ. b. M. (1420 AH). *Maʿālim al-Tanzīl fi Tafsīr al-Qurʾān* (ʿA. al-Razzāq al-Mahdī, Ed., 1st ed.). Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.
- al-Khaṭīb al-Baghdādī, A. b. ʿA. (2002). *Tārīkh Baghdād* (B. ʿAwwād Maʿrūf, Ed., 1st ed.). Dār al-Gharb al-Islāmī.
- Ibn Abī ʿIlfaḥ, R. (1996). *Muʿjam al-Bidaʾ* (1st ed.). Dār al-ʿĀshimah.
- al-Zarqānī, M. ʿA. (n.d.). *Manāhil al-ʿIrfān*. Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.
- al-Ziriklī, Kh. (2002). *al-Aʿlām* (15th ed.). Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn.
- al-Dhahabī, Sh. b. A. (1985). *Siyar Aʿlām al-Nubalāʾ* (Shuʿayb al-Arnāʿūṭ et al., Eds., 3rd ed.). Muʿassasat al-Risālah.
- Ibn al-Athīr, Ḍ. b. M. (n.d.). *al-Mathal al-Sāʿir fi Adab al-Kātib wa-al-Shāʿir*. Dār Nahḍat Miṣr.
- al-Sāmarrāʾī, F. Ş. (2000). *Maʿānī al-Naḥw* (1st ed.). Dār al-Fikr.
- al-Anṣārī, F. (1997). *Abjadiyyāt al-Baḥth fi al-ʿUlūm al-Sharʿiyyah* (1st ed.). Dār al-Furqān.
- al-Fīrūzābādī, M. b. Y. (2000). *al-Bulghah fi Tarājim Ahl al-Naḥw wa-al-Lughah* (1st ed.). Dār Saʿd al-Dīn.
- Various authors. (2019). *ʿUlūm al-Qurʾān: Ishkāliyyat al-Mafhūm wa-al-Manhaj wa-al-Wazīfah* (1st ed.). Maṭbaʿat al-Maʿārif al-Jadīdah.

al-Qurṭubī, M. b. A. (1964). *al-Jāmi‘ li-Aḥkām al-Qur’ān* (A. al-Bardūnī & I. Aṭfīsh, Eds., 2nd ed.). Dār al-Kutub al-Miṣriyyah.

Ibn Manẓūr, M. b. M. (1992). *Lisān al-‘Arab* (1st ed.). Dār Ṣādir.

al-Zamakhsharī, M. b. ‘U. (1987). *al-Kashshāf ‘an Ḥaqā’iq Ghawāmiḍ al-Tanzīl* (3rd ed.). Dār al-Rayān lil-Turāth.

al-Qaṭṭān, M. Kh. (2011). *Mabāḥith fi ‘Ulūm al-Qur’ān* (1st ed.). Mu’assasat al-Risālah.